أولاً- نصوص الاستماع:

الفصل الأول

الدرس الأول

الاسْتِماعُ والمُحادَثَةُ:

أَهَمِّيَّةُ الوَحْدَةِ

الوَحْدَةُ مَفْهومٌ شامِلٌ لِمعانٍ مُتعَدِّدَةٍ؛ تَتَمَثَّلُ بِالتَّلاحُمِ، وَالتَّرابُطِ، وَالانْسِجامِ بَيْنَ أَفْرادِ المُجْتَمَعِ الواحِدِ، وَتَتَحَقَّقُ حِينَ يَتَكاتَفُ أَفْرادُ المُجْتَمَعِ جَميعُهُمْ في تَحْقيقِ مَصالِحِ الوَطَنِ العُلْيا، المُتَمَثِّلَةِ في الحُرِّيَّةِ وَالعِزَّةِ وَالكَرامَةِ.

وَقَدْ حَثَّ القُرآنُ الكَريمُ عَلى الوَحْدَةِ، وَحَذَّرَ مِنَ الفُرْقَةِ في غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وَلِلْوَحْدَةِ بَيْنَ أَفْرادِ الوَطَنِ مُقَوِّماتٌ أَساسِيَّةٌ تَفْرِضُ نَفْسَها، مِنْها: اللُّغَةُ، وَالدِّينُ، وَالتّاريخُ، وَالعاداتُ وَالتَّقاليدُ، وَوَحْدَةُ الدَّمِ وَالمَصيرِ، وَهذِهِ مُقَوِّماتٌ لا يُمْكِنُ أَنْ يَغْفُلَ عَنْها إِلّا مَنْ أَصابَهُ الجُنونُ، وَاسْتَسْلَمَ لِسُلْطانِ الجَهْلِ، وَشَيْطانِ الطَّمَعِ.

وَهذا لا يَعْني أَلّا نَتَنَوَّعَ، وَأَلّا تَتَعَدَّدَ اتِّجاهاتُنا وَمَشارِبُنا الفِكْرِيَّةُ، فَالتَّنَوُّعُ وَالتَّعَدُّدُ أَمْرانِ صِحِّيّانِ وَطَبيعِيّانِ عِنْدَ أَصْحابِ البَصيرَةِ. وَما يُؤَكِّدُ ذلِكَ أَنَّ اللهَ - سُبْحانَهُ وَتَعالى - جَعَلَهُما سِمَةً لِلكَوْنِ، فَخَلَقَ لَنا أَصْنافَ الوُرودِ، وَالطُّيورِ، وَالبَهائِمِ، وَزَيَّنَ الأَرْضَ بِالأَلْوانِ، وَالأَشْكالِ، لِتَتَكامَلَ هذِهِ المَخْلوقاتُ عَلى اخْتِلافِها، في لَوْحَةٍ ناطِقَةٍ بِالرَّوْعَةِ وَالجَمالِ الفَتّانِ. وَلا شَكَّ في أَنَّ أَطْيافَ قَوْسِ قُزَحٍ، تَسْتَمِدُّ جَمالَها مِنْ تَمازُجِها وَتَعَدُّدِها.

وَفي المُقابِلِ، لِلتَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافِ آثارٌ سَلْبِيَّةٌ خَطيرَةٌ، مِنْها: اسْتِكانَةُ المُجْتَمَعِ، وَدُخولُهُ في حالَةٍ مِنَ التَّفَكُّكِ وَالانْهِيارِ، وَاسْتِسْلامُهُ لِحالَةٍ مِنَ التَّنازُعِ البَغيضِ، الأَمْرُ الَّذي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ تَجْزِئَةُ المُجْتَمَعِ وَانْقِسامُهُ، وَتَشْجيعُ العَدُوِّ لِيَعْبَثَ بِهِ بِشَتّى الوَسائِلِ، فَتَتَوَقَّفَ مَسيرَةُ العَمَلِ وَالبِناءِ، وَنَدْخُلَ في حالَةٍ مِنَ الفَوْضى وَالضَّياعِ، لِنَخْسَرَ أَثْمَنَ ما نَعْتَزُّ بِهِ، وَهُوَ وَحْدَتُنا.

الاسْتِماعُ والمُحادَثَةُ:

الزَّيْتونُ غِذاءٌ وَهُوِيَّةٌ

جَلَسَتْ مَعَ أَطْفالِها تَحْتَ الشَّجَرَةِ، أَخَذَتْ تَرْوي لَهُمْ أَجْمَلَ الحِكاياتِ الَّتي سَطَّرَها جَدُّهُمْ، وَكَيْفَ كانَتْ هذِهِ الأَشْجارُ جُزْءاً مِنْ فُؤادِهِ، يُحِبُّها وَيُدَلِّلُها كَوَلَدٍ مِنْ أَوْلادِهِ، وما أَنْ أَكْمَلَتْ حَديثَها، حَتّى سالَتْ مِنْ حَبَّةِ الزَّيْتونِ دَمْعَةٌ.

سَأَلَ أَحْمَدُ والِدَتَهُ عَنْ سِرِّ الدُّموعِ المُنْهَمِرَةِ مِنْ حَبَّةِ الزَّيْتونِ، فَتَنَهَّدَتِ الأُمُّ تَنْهيدَةً عَميقَةً عُمْقَ جُذورِ الزَّيْتونِ، ثُمَّ قالَتْ: يا وَلَدي، مُنْذُ أَنْ عَمَرْنا هذِهِ الأَرْضَ، وَغُصْنُ الزَّيْتونِ لا يُفارِقُ أَيْدِينا، نَغْرِسُهُ في تُرابِ الوَطَنِ كَما غُرِسَتْ مَحَبَّتُكُمْ في قُلوبِنا؛ فَمِنَ الزَّيْتونِ نَسْتَمِدُّ زَيْتَنا الَّذي طالَما اقْتَرَنَ بِالزَّعْتَرِ، فَشَكَّلَ وَجْبَةَ الإِفْطارِ الَّتي تُزَيِّنُ مائِدَةَ الفِلَسْطينِيِّ، عَبْرَ تاريخِهِ المُتَجَذِّرِ في عُمْقِ الأَرْضِ.

وما الَّذي تَعْنيهِ شَجَرَةُ الزَّيْتونِ لِجَدّي؟ ما الَّذي حَمَلَهُ عَلى مُلازَمَةِ ظِلالِها؟ فَتَراهُ يَكِدُّ وَيَجْتَهِدُ مِنْ أَجْلِها، عَلى الرَّغْمِ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّ مَوْعِدَ رَحيلِهِ قَدِ اقْتَرَبَ، وَأَنَّ الأَجَلَ باتَ يَطْرُقُ بابَهُ.

يا وَلَدي، لَقَدِ الْتَحَمَ الفَلّاحُ الفِلَسْطينِيُّ بِأَرْضِهِ، فَباتَتْ جُزْءاً مِنْ كَيْنونَتِهِ، أَغْصانُها تُماهي ضُلوعَ صَدْرِهِ، لَقَدِ الْتَصَقَتْ شَجَرَةُ الزَّيْتونِ بِأَجْدادِنا الكَنْعانِيّينَ الَّذينَ عَمَروا الأَرْضَ بِدِمائِهِمْ، وَزَرَعوها بِالزَّيْتونِ. أَلا تَراها كَالإِكْليلِ تُزَيِّنُ نَواصِيَ الجِبالِ؟ تُغَنّي لِلْفَلّاحينَ أَغانِيَ العِزِّ وَالصُّمودِ، تَصْرُخُ في وَجْهِ أَعْدائِها: أَنِ انْصَرِفوا عَنْ أَرْضي؛ فَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ فَرْحَتي وَعُنْفُواني، وَاعْتَدَيْتُمْ عَلى ثِماري وَأَغْصاني؛ فَجَعَلْتُمْ زَيْتِيَ دَمْعاً مالِحاً.

نَعَمْ يا أُمّي، سَمِعْتُ شاعِرَنا الكَبيرَ الرّاحِلَ (مَحمود دَرْويش) يَقولُ:

لَوْ يَذْكُرُ الزَّيْتونُ غارِسَهُ

لَصارَ الزَّيْتُ دَمْعاً.

يا لَها مِنْ وَشائِجَ قَوِيَّةٍ تَرْبِطُ الفَلّاحَ بِأَرْضِهِ! تُوَطِّدُها أَشْجارُهُ الَّتي يَقومُ عَلى تَرْبِيَتِها، وَتَنْشِئَتِها كَأَنَّها أَحَدُ أَبْنائِهِ، حَتّى إِذا كَبُرَتْ وَأَثْمَرَتْ، أَخَذَتْ تَجودُ عَلى صاحِبِها بِثَمَرِها النّاضِجِ الشَّهِيِّ، وَزَيْتِها الذَّهَبِيِّ، وَكَأَنَّها بِذلِكَ تَرُدُّ إِلَيْهِ الجَميلَ.

بِقَلَمِ المُعَلِّمَةِ: مجد حلبي «بِتَصَرُّفٍ»

الاسْتِماعُ والمُحادَثَةُ:

الذَّكاءُ

يُعَرِّفُ عُلَماءُ النَّفْسِ وَعُلَماءُ التَّرْبِيَةِ الذَّكاءَ، بِالقُدْرَةِ عَلى مواجَهَةِ الصِّعابِ، والتَّكَيُّفِ مَعَ الظُّروفِ الطّارِئَةِ، وَحَلِّ المُشْكِلاتِ الَّتي تَعْتَرِضُ طَريقَ الفَرْدِ؛ فَذَكاءُ الإِنْسانِ – وَفْقَ هذا التَّعريفِ - يُوضَعُ عَلى المِحَكِّ في زَمَنِ الأَزْماتِ، أَكْثَرَ مِنْهُ في زَمَنِ الدَّعَةِ والرّاحَةِ. وَهُوَ تَعْريفٌ يَتَجاوَزُ المَفْهومَ التَّقْليدِيَّ لِلذَّكاءِ، المُتَعَلِّقَ بِالقُدْرَةِ عَلى التَّفْكيرِ، وَالاسْتِنْتاجِ المَنْطِقيِّ، وَالتَّوَهُّجِ العَقْلِيِّ، وِالأَلْمَعِيَّةِ، وِالقُدْرَةِ عَلى خَزْنِ المَعْلوماتِ، والتَّوَصُّلِ إِلَيْها.

لَقَدْ لاحَظَ بَعْضُ العُلَماءِ، أَنَّ هُناكَ أَنْواعاً مِنَ القُدْراتِ وَالمَواهِبِ الفَرْدِيَّةِ لا تَسْتَطيعُ الامْتِحاناتُ التَّقْليدِيَّةُ قِياسَها، وَحَدَثَ أَنَّ كَثيراً مِنَ المَوْهوبينَ فَشِلوا في امْتِحاناتِ الذَّكاءِ التَّقْليدِيَّةِ، عِنْدَ دُخولِهِمُ الجامعةَ، ولكِنَّهُمْ نَبَغوا بَعْدَ ذلِكَ في كَثيرٍ مِنْ مَجالاتِ الحَياةِ، سَواءً في الجامِعَةِ الَّتي عادَتْ وَقَبِلَتْهُمْ، أَوْ في المُحيطِ الخارِجِيِّ، وَهذا ما دَعا بَعْضَ العُلَماءِ إِلى تَوْسيعِ مَفْهومِ الذَّكاءِ، لِيُضيفوا إِلَيْهِ أَنْواعاً أُخَرَ؛ مِنْها: اللُّغَوِيُّ، وَالرِّياضِيُّ، وَالمَكانِيُّ، وَالاجْتِماعِيُّ، وَالموسيقِيُّ، وَغَيْرُها.

وَالقَوْلُ بِتَنَوُّعِ الذَّكاءِ فائِقُ القيمَةِ؛ لِأَنَّهُ يَدْفَعُ النّاسَ بِعامَّةٍ، وَالمُرَبّينَ، وَالأَهْلَ، وَعُلَماءَ النَّفْسِ بِخاصَّةٍ، إِلى تَقْديرِ أَنْواعٍ مِنَ المَواهِبِ وَالقُدْراتِ لَمْ تَكُنْ مُصَنَّفَةً بِوَصْفِها مِنْ أَنْواعِ الذَّكاءِ، فَلاعِبُ كُرَةِ القَدَمِ المُتَفَوِّقُ شَخْصٌ ذَكِيٌّ، حَتّى لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَفَوِّقاً في الحِسابِ، أَوْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِلْقاءَ كَلِمَةٍ أَمامَ جُمْهورٍ، وَهَذا يَعْني أَنَّهُ لا يوجَدُ شَخْصٌ غَبِيٌّ، وَشَخْصٌ ذَكِيٌّ، كَما يَرى بَعْضُنا؛ بَلْ يوجَدُ أَشْخاصٌ أَذْكِياءُ بِطَبيعَتِهِمْ في تَخَصُّصاتٍ وَمَجالاتٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأَشْخاصٌ أَذْكِياءُ في مَجالاتٍ أُخَرَ، وَمِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تَجِدَ أَشْخاصاً يَمْتَلِكونَ أَكْثَرَ مِنْ نَوْعٍ مِنَ الذَّكاءِ، وَلكِنْ مِنَ النّادِرِ أَنْ تَجِدَ شَخْصاً لا يَمْتَلِكُ أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الذَّكاءِ.

من مقالة بعنوان: أعمدة الذكاء السبعة، د. أحمد الهيبي، بتصرف

الدرس الرّابع

الاسْتِماعُ وَالمُحادَثَةُ:

الضَّحِكُ مِرْآةُ السَّعادَةِ

الضَّحِكُ صورَةٌ مِنْ صُوَرِ التَّعْبيرِ عَنِ الفَرَحِ وَالسَّعادَةِ، وَهُوَ رَدُّ فِعْلٍ طَبيعِيٍّ في مُعْظَمِ حالاتِهِ، نَتيجَةَ التَّعَرُّضِ لِمَوْقِفٍ هَزْلِيٍّ، أَوْ مُشاهَدَةِ صورَةٍ مُضْحِكَةٍ، أَوْ سَماعِ نُكْتَةٍ.

وَهُوَ إِشارَةٌ إِلى تَواجُدِ الإِنْسانِ اجْتِماعِيّاً، وَقَبولِهِ التَّفاعُلَ الإيجابِيَّ مَعَ الآخَرينَ، فَالابْتِسامَةُ أَجْمَلُ لُغَةٍ في الحَياةِ؛ فَهِيَ الإِضاءَةُ الطَّبيعِيَّةُ لِوَجْهِ الإِنْسانِ، وَالإِشْراقَةُ المُنيرَةُ لِطَريقِ سَعادَتِهِ وَصِحَّتِهِ، وَهِيَ الشُّعورُ النَّفْسِيُّ العَميقُ بِالطُّمَأْنينَةِ وَالسُّرورِ.

وَقَدْ حَرَصَ الإِسْلامُ عَلى كُلِّ ما يَرْفَعُ عَنِ النَّفْسِ الكَآبَةَ، وَيَدْفَعُ عَنْها المَلَلَ، فَهُوَ يُحِبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكونَ مُتَفائِلاً باشّاً، وَيَكْرَهُ لَهُ أَنْ يَكونَ مُتَشائِماً مُتَطَيِّراً، وَفي ذلِكَ يَقولُ الرَّسولُ الكَريمُ: «تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخيكَ صَدَقَةٌ».

وَكانَ العَرَبُ يُشيدونَ بِطَلْقِ الوَجْهِ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُمْ: «هُوَ ضَحوكُ السِّنِّ وَالوَجْهِ»، وَاهْتَمّوا بِالنَّوادِرِ وَالقِصَصِ؛ فَبَرَزَتْ شَخْصِيّاتٌ فَكِهَةٌ في نَوادِرَ كَثيرَةٍ، مِنْها: جُحا، وَأَبو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ، وَأَبو دُلامَةَ، وَأُلِّفَتْ كُتُبٌ في السُّخْرِيَةِ مِنْ صِفاتٍ مَمْقوتَةٍ؛ بِهَدَفِ النَّقْدِ الاجْتِماعِيِّ أَوَّلاً، وَإِمْتاعِ القُرّاءِ ثانِياً، وَمِنْها: كِتابُ البُخَلاءِ الَّذي أَلَّفَهُ الجاحِظُ.

وَلِلضَّحِكِ فَوائِدُ كَثيرَةٌ عَلى صِحَّةِ الإِنْسانِ الجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ؛ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ يُسْهِمُ في إِنْعاشِ الدَّوْرَةِ الدَّمَوِيَّةِ، وَيُخَفِّفُ مِنَ الإِجْهادِ، وَحالاتِ الصُّداعِ.

وَقَدْ أَثْبَتَتْ بَعْضُ الدِّراساتِ العِلْمِيَّةِ، أَنَّ الَّذينَ يَتَمَتَّعونَ بِالحِسِّ الفُكاهِيِّ، يَأْتي تَرْتيبُهُمْ مُتَأَخِّراً في سُلَّمِ الأَشْخاصِ المُعَرَّضينَ لِلإِصابَةِ بِالأَمْراضِ النَّفْسِيَّةِ.

وَلا نَنْسى أَنَّ المَرِحينَ يَمْتَلِكونَ قُدْرَةً عَلى التَّأَقْلُمِ وَالتَّفاعُلِ مَعَ الأَشْخاصِ الَّذينَ يَتَعَرَّفونَ إِلَيْهِمْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَيَسْتَطيعونَ بِناءَ عَلاقاتِ صَداقَةٍ بِسُهولَةٍ؛ لِأَنَّ النّاسَ يَميلونَ إِلى الشَّخْصِ المَرِحِ، وَيُقَدِّمونَهُ عَلى العَبوسِ كالِحِ الوَجْهِ. وَفي المُقابِلِ فَإِنَّ المُبالَغَةَ في الضَّحِكِ تُخْرِجُ الإِنْسانَ عَنْ وَقارِهِ، وَتُفْقِدُهُ احْتِرامَ الآخَرينَ وَتَقْديرَهُمْ، وَبِخاصَّةٍ إِذا كانَ الضَّحِكُ عَلى حِسابِ الأُمورِ الجادَّةِ.

الاسْتِماعُ وَالمُحادَثَةُ:

العَمَلُ ناموسُ الحَياةِ

العَمَلُ هُوَ الحَياةُ، وَلا حَياةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَهُوَ شَرَفٌ يُغْني المَرْءَ عَنْ إِهْدارِ كَرامَتِهِ بِمَدِّ يَدِهِ إِلى غَيْرِهِ، وواجِبٌ لا تَعودُ فائِدَتُهُ عَلى العامِلِ وَحْدَهُ، بَلْ عَلى المُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، وَهُوَ أَساسُ العُمْرانِ، وَسَبيلُ التَّكامُلِ في هذا الوُجودِ، وَلَوْلاهُ ما رَأَيْنا سَفينَةً تَجْري عَلى سَطْحِ الماءِ، ولا طائِرَةً تُحَلِّقُ في الفَضاءِ.

العَمَلُ ناموسُ الحَياةِ، بِهِ تَنْهَضُ الأُمَمُ، وَتَسودُ الشُّعوبُ، وَيَنْجَحُ الأَفْرادُ، وبِغَيْرِهِ لا كَرامَةَ لِلإِنْسانِ؛ فالرَّجُلُ الخامِلُ، الَّذي يَنامُ نَهارَهُ، ويَقْضي لَيْلَهُ في اللَّهْوِ والمَلَذّاتِ عالَةٌ عَلى نَفْسِهِ، وعَلى أُسْرَتِهِ، وعَلى مُجْتَمَعِهِ.

وفي التّاريخِ لا يُحْكَمُ عَلى الإِنْسانِ بِمِقْدارِ عُمْرِهِ، وَإِنَّما بِمِقْدارِ عَمَلِهِ وَأَثَرِهِ في الحَياةِ. وَمِمّا حُفِظَ عَنْ عُمَرَ بن الخَطّابِ قَوْلُهُ: « إِنّي لَأَرى الرَّجُلَ فَيُعْجِبُني، فَإِذا قِيلَ لا عَمَلَ لَهُ، سَقَطَ مِنْ عَيْني». فَقَدْ يَحْيا الشَّخْصُ حَياةً قَصيرَةً، وَيَمْلَؤُها بِالأَعْمالِ الصّالِحَةِ الجَليلَةِ؛ فَيَبْقى ذِكْرُهُ، وَقَدْ يُعَمَّرُ، وَيَحْيا حَياةً طَويلَةً، وَلَكِنْ لا تَجِدُ لَهُ أَثَراً أَوْ عَمَلاً جَليلاً يُذْكَرُ بِهِ؛ وَصَدَقَ المُتَنَبّي حينَ قالَ:

لَيْسَ مَنْ ماتَ فاسْتَراحَ بِمَيْتٍ إِنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْياءِ

وَيُحَدِّثُنا التّاريخُ أَنَّ الرّومانَ لَمْ يَذْهَبْ سُلْطانُهُمْ، وَلَمْ تَذْهَبْ إِمْبَراطورِيَّتُهُمْ إِلّا حينَ احْتَقَروا العَمَلَ، وَأَلِفوا الرّاحَةَ وَالكَسَلَ، وَاعْتَمَدوا في أَعْمالِهِمْ عَلى العَبيدِ وَالخَدَمِ، وَيُحَدِّثُنا التّاريخُ أَيْضاً أَنَّ أَلْمانيا خَرَجَتْ بَعْدَ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) فَقيرَةً، مَكْسورَةَ الجَناحِ، وَلَكِنَّها بِالعَمَلِ وَالمُثابَرَةِ اسْتَعادَتْ قُوَّتَها وَعَظَمَتَها، وَاسْتَطاعَتْ أَنْ تُحارِبَ العالَمَ كُلَّهُ في الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الثّانِيَةِ (١٩٣٩-١٩٤٥م).

عَظَمَةُ الإِسْلامِ، محمد عطية الإبراشي، ج ٢ ص ٣٣٦-٣٣٧، ط٢ بِتَصَرُّفٍ

الاسْتِماعُ والمُحادَثَةُ:

الأَطْفالُ الكِبارُ

جَلَسَتِ الأُمُّ ذاتَ مَساءٍ تُساعِدُ أَبْناءَها في مُراجَعَةِ دُروسِهِمْ، وَأَعْطَتْ طِفْلَها الصَّغيرَ البالِغَ الرّابِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ كُرّاسَةً للرَّسْمِ؛ حَتّى لا يَشْغَلَها عَمّا تَقومُ بِهِ مِنْ شَرْحٍ وَمُذاكَرَةٍ لِإِخْوَتِهِ الآخَرينَ. وَتَذَكَّرَتْ فَجْأَةً، أَنَّها لَمْ تُعِدَّ طَعامَ العَشاءِ لِوالِدِ زَوْجِها الشَّيْخِ المُسِنِّ، الَّذي يَعيشُ مَعَهُمْ في حُجْرَةٍ خارِجَ المَبْنى في (حوشِ) البَيْتِ، وَكانَتْ تَقومُ عَلى خِدْمَتِهِ ما أَمْكَنَها ذلِكَ، وَالزَّوْجُ راضٍ بِما تُؤَدّيهِ مِنْ خِدْمَةٍ لِوالِدِهِ، الَّذي كانَ لا يُغادِرُ غُرْفَتَهُ؛ لِضَعْفِ صِحَّتِهِ.

أَسْرَعَتْ بِالطَّعامِ إِلَيْهِ، وَسَأَلَتْهُ إِنْ كانَ في حاجَةٍ لِأَيِّ خِدْماتٍ أُخرى، ثُمَّ انْصَرَفَتْ عَنْهُ، وَعادَتْ إِلى ما كانَتْ عَلَيْهِ مَعَ أَبْنائِها. لاحَظَتْ أَنَّ الطِّفْلَ يَرْسُمُ دَوائِرَ وَمُرَبَّعاتٍ، وَيَضَعُ فيها رُموزاً، فَسَأَلَتْهُ: ما الَّذي تَرْسُمُهُ يا صَغيري؟. فَأَجابَها بِكُلِّ بَراءَةٍ: أَرْسُمُ بَيْتي الَّذي سَأَعيشُ فيهِ عِنْدَما أَكْبُرُ وَأَتَزَوَّجُ.

غَمَرَتْ عَيْنَي الأُمِّ الفَرْحَةُ، ثُمَّ تابَعَتْ، وَأَيْنَ سَتَنامُ يا حَبيبي؟ فَأَخَذَ الطِّفْلُ يُريها كُلَّ مُرَبَّعٍ رَسَمَهُ، وَيَقولُ: هذِهِ غُرْفَةُ النَّوْمِ، وَهذا المَطْبَخُ، وَهذِهِ غُرْفَةٌ لاسْتِقْبالِ الضُّيوفِ، ثُمَّ عَدَّدَ كُلَّ ما يَعْرِفُهُ مِنْ غُرَفِ البَيْتِ، وَلكِنَّهُ تَرَكَ مُرَبَّعاً مُنْعَزِلاً خارِجَ الإِطارِ الَّذي رَسَمَ فيهِ الغُرَفَ، فَتَعَجَّبَتِ الأُمُّ، وَسَأَلَتْ: وَلكِنْ، لِماذا رَسَمْتَ هذِهِ الغُرْفَةَ خارِجَ البَيْتِ، مُنْعَزِلَةً عَنْ باقي الغُرَفِ؟

رَدَّ الطِّفْلُ: إِنَّها لَكِ يا أُمّي، سَأَجْعَلُكِ تَعيشينَ فيها كَما يَعيشُ جَدّي الكَبيرُ الآنَ.

صُعِقَتِ الأُمُّ لِما قالَهُ طِفْلُها، واسْتَغْرَقَتْ في تَفْكيرٍ عَميقٍ، وَأَخَذَتْ تَهْذي قائِلَةً: هَلْ سَأَكونُ وَحيدَةً خارِجَ البَيْتِ في (الحوشِ)، دونَ أَنْ أَتَمَتَّعَ بِالحَديثِ مَعَ ابْني وَأَطْفالِهِ؟ هَلْ سَيَغيبُ عَنّي كَلامُهُ وَمَرَحُهُ وَلَعِبُهُ، عِنْدَما أَعْجَزُ عَنِ الحَرَكَةِ؟ وَمَنْ سَأُكَلِّمُ حينَها؟ وَهَلْ سَأَمْضي ما بَقِيَ مِنْ عُمْري وَحْدي بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُدْرانٍ، دونَ أَنْ أَسْمَعَ هَمْساتِ فِلْذاتِ كَبِدي وَأَنّاتِهِمْ؟

هُرِعَتِ الأُمُّ، واسْتَدْعَتْ أَوْلادَها لِيُساعِدوها في نَقْلِ أَثاثِ الغُرْفَةِ المُخَصَّصَةِ لاسْتِقْبالِ الضُّيوفِ، الَّتي تَكونُ عادَةً أَجْمَلَ الغُرَفِ، وَأَكْثَرَها صَدارَةً في المَوْقِعِ، وَأَحْضَرَتْ سَريرَ عَمِّها، وَنَقَلَتِ الأَثاثَ المُخَصَّصَ لِلضُّيوفِ إِلى غُرْفَتِهِ خارِجاً في (الحوشِ).

وَعِنْدَما عادَ الزَّوْجُ مِنَ الخارِجِ، تَفاجَأَ بِما رَأى، وَتَعَجَّبَ لَهُ سائِلاً: وَلكِنْ ما الدّاعي إِلى هذا التَّغْييرِ؟

أَجابَتْهُ وَالدُّموعُ تَتَرَقْرَقُ في عَيْنَيْها: إِنَّني أَخْتارُ أَجْمَلَ الغُرَفِ الَّتي سَنَعيشُ فيها أَنا وَأَنْتَ، إِنْ أَعْطانا اللهُ عُمُراً، وَعَجَزْنا عَنِ الحَرَكَةِ. وَلْيَبْقَ الضُّيوفُ في غُرْفَةِ (الحوشِ).

فَهِمَ الزَّوْجُ ما قَصَدَتْهُ، وَأَثْنى عَلَيْها، بَيْنَما كانَ الجَدُّ يَنْظُرُ إِلَيْهِما، وَيَبْتَسِمُ بِعَيْنٍ راضِيَةٍ.

امْتَلَأَت عَيْنا الطِّفْلِ بِالابْتِسامَةِ، وَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنْ مَسَحَ رَسْمَهُ وَابْتَسَمَ.

الاسْتِماعُ والمُحادَثَةُ:

الياسَمينُ الدِّمَشْقِيُّ

هذِهِ الزَّهْرَةُ البَيْضاءُ الصَّغيرَةُ، تَحَوَّلَتْ إلى رَمْزٍ دِمَشْقِيٍّ حينَ انْتَشَرَتْ في بَساتينِ دِمَشْقَ، وَعَلى شُرُفاتِ مَنازِلِها القَديمَةِ، وَفي حَدائِقِ بيوتِها الجَديدَةِ، وَحَدائِقِها العامَّةِ وَالخاصَّةِ.

فَحينَ يُذْكَرُ البَيْتُ الدِّمَشْقيُّ، تَتَداعى إلى الذّاكِرَةِ صورَةٌ نَمَطِيَّةٌ حَميمِيَّةٌ لِحَيِّزٍ مَكانِيٍّ، يَعْبَقُ بِأَريجِ اللَّيْمونِ الدِّمَشْقِيِّ، وَالفُلِّ، وَالأَضالْيا، وَالمِسْتَحِيَّةِ.

وَعَنْ دِمَشْقَ وَالياسَمينِ نُسِجَتِ الأَساطيرُ، وَمِنْها: « أَنَّ التّاريخَ تَزَوَّجَ شُجَيْرَةَ ياسَمينَ فَأَنْجَبَ مِنْها دِمَشْقَ ...، نَعَمْ، هِيَ الياسَمينَةُ الدِّمَشْقيَّةُ الَّتي انْتَشَرَتْ في بُيوتِها القَديمَةِ. وَظَلَّتْ عَلامَةً تُمَيِّزُ الهُوِيَّةَ الدِّمَشْقِيَّةَ، وَيُنْبوعاً لِلجَمالِ، وَأُغْنِيَةً لِلشِّعْرِ؛ فَهذا الشّاعِرُ الأَنْدَلُسِيُّ ابْنُ الأَبّارِ، ابْنُ القَرْنِ الثّامِنِ الميلادِيِّ يَقولُ في الشّامِ:

فَتِلْكَ عُروشُ اليّاسَمينِ، وَزَهْرُهُ   كَزَهْرِ النُّجومِ وَسْطَ أَفْلاكِها تَبْدو

وَهذا نِزار قَبّاني يوصي قَبْلَ مَوْتِهِ قائِلاً: « إِنَّني أَرْغَبُ في أَنْ يُنقَلَ جُثْماني بَعْدَ وَفاتي إِلى دِمَشْقَ، وَيُدْفَنَ فيها في مَقْبَرَةِ الأَهْلِ، لِأَنَّ دِمَشْقَ هي الرَّحِمُ الَّذي عَلَّمَني الشِّعْرَ، وَعَلَّمَني الإِبْداعَ، وَأَهْداني أَبْجَدِيَّةَ الياسَمينِ».

وَهذا مَحمود دَرويش يَتَغَنّى بِالشّامِ، قائِلاً:

«في الشّامِ، أَعْرِفُ مَنْ أَنا وَسَطَ الزِّحامْ

يَدُلُّني قَمَرٌ تَلَألأَ في يَدِ امْرَأَةٍ... عَلَيَّ

يَدُلُّني حَجَرٌ تَوَضَّأَ في دُموعِ الياسَمينَةِ، ثُمَّ نام».

بِقَلَمِ الكاتِبِ السّوريِّ د. (جوزيف زَيْتون)، بِتَصَرُّفٍ.

الدرس الثّامِن

الاسْتِماعُ وَالمُحادَثَةُ:

مِكْيالُكَ يُكالُ لَكَ بِهِ

يُحْكى أَنَّ رَجُلاً فَقيراً كانَ يَعيشُ في إِحْدى القُرى مَعَ زَوْجِهِ في بَيْتِهِما الرَّثِّ القَديمِ، وَكانَ الزَّوْجانِ يَتَعاوَنانِ بِأَعْمالٍ بَسيطَةٍ تُعيلُهُما، وَتُدْخِلُ عَلَيْهِما القَليلَ مِنَ المالِ؛ لِيَعيشا حَياةً كَريمَةً لا يَسْتَجْدِيانِ فيها أَحَداً، فالمَرْأَةُ تَصْنَعُ الزُّبْدَةَ وَتُحَضِّرُها عَلى شَكْلِ كُراتٍ، زِنَةُ كُلِّ كُرَةٍ مِنْها كيلو غراماً واحِداً، وَعِنْدَما تَنْتَهي مِنْ تَشْكيلِها، يَأْخُذُ الرَّجُلُ تِلْكَ الكُراتِ إِلى المَدينَةِ؛ لِيَبيعَها لِصاحِبِ بَقّالَةٍ كانَ قَدِ اتَّفَقَ مَعَهُ مُنْذُ زَمَنٍ عَلى ذلِكَ، ثُمَّ يَشْتَري بِثَمَنِ تِلْكَ الكُراتِ حاجاتِ البَيْتِ وَمُسْتَلْزَماتِهِ؛ مِنْ طَعامٍ وَشَرابٍ وَغَيْرِ ذلِكَ.

مَرَّتِ الأَيّامُ، وَالرَّجُلُ الفَقيرُ عَلى هذِهِ الحالَةِ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ القَرْيَةِ وَالمَدينَةِ ذَهاباً وَإِياباً، وَفي أَحَدِ الأَيّامِ شَكَّ صاحِبُ البَقّالَةِ بِوَزْنِ كُرَةِ الزُّبْدَةِ الَّتي كانَ يَشْتَريها مِنَ الرَّجُلِ الفَقيرِ، فَوَزَنَها فَوَجَدَها أَقَلَّ مِنْ كيلو بِمِئَةِ غرامٍ، فَصُعِقَ، وَقالَ في نَفْسِهِ: كَيْفَ يَجْرُؤُ هذا الرَّجُلُ عَلى خِداعي؟ وَلَمْ يَنَمْ لَيْلَتَهُ، وَهُوَ يُفَكِّرُ بِاليَوْمِ الَّذي سَيَحْضُرُ فيهِ ذلِكَ الرَّجُلُ؛ لِيَقْتَصَّ مِنْهُ.

وَحَضَرَ الرَّجُلُ الفَقيرُ كَعادَتِهِ حامِلاً كُراتِ الزُّبْدَةِ، فَقابَلَهُ صاحِبُ البَقّالَةِ بِغَضَبٍ، وَقَدْ تَلَهَّبَ الجَمْرُ في عَيْنَيْهِ، وَقالَ لَهُ: لَنْ أَشْتَرِيَ مِنْكَ مَرَّةً أُخرى يا غَشّاشُ...، تَبيعُني الزُّبْدَةَ عَلى أَنَّها كيلو، وَهِيَ أَقَلُّ مِنْ ذلِكَ بِمِئَةِ غرامٍ.

تَفاجَأَ الرَّجُلُ الفَقيرُ مِمّا سَمِعَهُ، وَنَكَّسَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قالَ بِلَهْجَةٍ يَمْلَؤُها الخَجَلُ: نَحْنُ يا سَيِّدي لا نَمْلِكُ ميزاناً، وَلَيْسَ مِنْ طِباعِنا أَنْ نَغُشَّ الآخَرينَ، وَلكِنّي اشْتَرَيْتُ مِنْكَ كيلو مِنَ السُّكَرِ مُنْذُ مُدَّةٍ، وَمِنْ يَوْمِها جَعَلْتُهُ لي مِثْقالاً، أَزِنُ بِهِ الزُّبْدَةَ الَّتي تَشْتَريها مِنّي. وَقَعَتْ كَلِماتُ الرَّجُلِ الفَقيرِ كَالصّاعِقَةِ عَلى رَأْسِ صاحِبِ البَقّالَةِ، فَأَحَسَّ بِالخَجَلِ وَالعارِ مِنْ نَفْسِهِ وَتَمَنّى لَوْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَبْلَعُهُ.

الدرس التّاسع

الاسْتِماعُ والمُحادَثَةُ:

تَخَلَّصْ مِنْ قَلَقِكَ

أَيُّها الإِنْسانُ القَلِقُ، يا مَنْ تَسَلَّطَ على عَقْلِهِ تَفْكيرٌ مُلِحٌّ، وَهاجِسٌ مُسَهِّدٌ، فَأَرِقَ وَلَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ، وَانْشَغَلَ فَلَمْ يَهْدَأْ لَهُ بالٌ. فَقَدَ لَذَّةَ النَّومِ الهانِئِ، وَتَعَذَّبَ بِالحَيْرَةِ وَالانْتِظارِ، وَتَعَطَّلَ عِنْدَهُ مِكْبَحُ حِلْمِهِ وَصَبْرِهِ، وَانفَلَتَ زِمامُ أَعْصابِهِ، وَساءَ حالُهُ مَعَ الآخَرينَ؛ فَانْطَوى عَلى نَفْسِهِ، وَأَصْبَحَتْ حَياتُهُ في سَوادٍ دامِسٍ وَلَيلٍ حالِكٍ، وَخَيَّمَ عَلى فُؤادِهِ هَمٌّ وَغَمٌّ، وَاعْتَرى نَفْسَهُ شُعورٌ بالانْقِباضِ وَالكَآبَةِ، فَزادَ خَفَقانُ قَلْبِهِ، وَاضْطَرَبَتْ أَحْشاؤُهُ، وَفَقَدَ شَهِيّةَ الأَكْلِ، فَكانَ ذُبولٌ وَنُحولٌ وَاصْفِرارٌ .

أَيُّها الإِنْسانُ القَلِقُ، هَلْ تُريدُ طُمَأْنينَةَ الرُّوحِ، وَسَكينَةَ النَّفْسِ، وَانْشِراحَ الصَّدْرِ، وَراحَةَ النَّومِ؟ هَلْ تُريدُ تَبَدُّلَ حالِكَ مِنْ ذُبولٍ إِلى نَضارَةٍ، وَمِنْ نُحولٍ إِلى رِيٍّ، وَمِنْ صُفْرَةٍ إِلى حُمْرَةٍ؟

أَيُّها الإِنْسانُ القَلِقُ، لا تَقْلَقْ لِما أَصابَكَ، فَإِنَّهُ مِنْ قَضاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَلا تَجْزَعْ، وَاصْبِرْ راضِياً بِأَمْرِ اللَّهِ مُحْتَسِباً بِهِ أَجرَهُ، مُسْتَعيناً بِذِكْرِهِ، مُسْتَبْشِراً بِرَحْمَتِهِ.

أَيُّها الإِنْسانُ القَلِقُ، لا تَقْلَقْ وَلا تَحْزَنْ لِما لَيْسَ عِنْدَكَ، وَأَحْصِ نِعَمَ الوَهّابِ عَلَيكَ بَدَلاً مِنْ إِحْصاءِ هُمومِكَ.

أَيُّها الإِنْسانُ القَلِقُ، إِنْ كُنْتَ قَلِقاً لِما حَدَثَ في الماضي؛ فَاتَّخِذْ مِنْهُ العِبْرَةَ وَلا تُفَكِّرْ في اسْتِعادَتِهِ؛ فَإِنَّ الماضِيَ لَنْ يَعودَ، وَإِنْ كُنْتَ قَلِقاً مِنْ طولِ بَلاءٍ أَصابَكَ، فَلا تَيْأَسْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَإِنَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقولُ :﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وَإِنْ كُنْتَ قَلِقاً عَلى رِزْقِكَ وَمُسْتَقْبَلِكَ، فَإِنَّ رِزْقَكَ عِنْدَ رَزّاقِ العِبادِ مُقَدَّرٌ مَقْسومٌ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، وَإِنَّ مُسْتَقْبَلَكَ مَكْتوبٌ مَعْلومٌ، وَلا تَخْشَ تَسَلُّطَ الآخَرينَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ.

الاسْتِماعُ والمُحادَثَةُ:

قِصَّةُ عالِمٍ تَأَلَّقَ في المَهْجَرِ

علي حسن نايْفَة، عالِمُ الهَنْدَسَةِ الفِلَسْطينِيُّ، قِصَّةُ نَجاحٍ عالَمِيَّةٌ، كُتِبَتْ جُلُّ فُصولِها في جامِعاتِ الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ وَمُخْتَبَراتِها، وَفي جامِعاتِ بَعْضِ البُلْدانِ العَرَبِيَّةِ وَمَعاهِدِها.

وُلِدَ عامَ ١٩٣٣م في قَرْيَةِ شويكة شَمالَ مَدينَةِ طولكرم، وَدَرَسَ في مَدارِسِها. وَتُمَثِّلُ مَسيرَتُهُ نَموذَجاً لِلتَّحَدّي وَالمُثابَرَةِ؛ فالظُّروفُ الصَّعْبَةُ لَمْ تُثَبِّطْ عَزيمَتَهُ، وَلَمْ تُطْفِئْ جَذْوَةَ الأَمَلِ في قَلْبِهِ.

عَمِلَ مُعَلِّمًا في مَدارِسِ الأُرْدُنِّ، حَتّى تَيَسَّرَتْ لَهُ بِعْثَةٌ دِراسِيَّةٌ في جامِعَةِ (ستانفورد) الأَميركيةِ، لِيَحْصُلَ عَلى دَرَجَتَيْ الماجِسْتيرِ وَالدُّكْتوراه في أَرْبَعِ سَنَواتٍ، وَهُوَ زَمَنٌ مُخْتَصَرٌ. عَمِلَ أُسْتاذاً في جامِعَةِ (فرجينيا) لِلتِّكْنولوجيا مُنْذُ عامِ ١٩٧٦ م، وَخَلَّفَ وَراءَهُ تَرِكَةً غَنِيَّةً مِنَ الإِنْجازاتِ وَالأَبْحاثِ، وَبَراءاتِ اخْتِراعٍ سُجِّلَتْ في أَمْريكا، وَأُوروبا، وَالصّينِ، وَاليابانِ، كانَتْ لَها نَتائِجُ عَمَلِيَّةٌ مَلْموسَةٌ، مِنْ أَبْرَزِها تَطْويرُهُ جِهازاً صَغيراً لِلْكَشْفِ الفَوْرِيِّ عَنْ أَنْواعِ البَكْتيريا المُتَنَوِّعَةِ في الهَواءِ وَالسَّوائِلِ، بِما يُغْني عَنِ الفُحوصاتِ المِخْبَرِيَّةِ؛ وَمِنْها بَكْتيريا (إيبولا) الَّتي فَتَكَتْ بِآلافِ الأَشْخاصِ في عَدَدٍ مِنْ بُلْدانِ إِفْريقيا.

أَمّا إِسْهاماتُهُ العَرَبِيَّةُ فَكَثيرَةٌ أَيْضاً، فَقَدْ أَسَّسَ كُلِّيَّةَ الهَنْدَسَةِ في جامِعَةِ المَلِكِ عَبْدِ العَزيزِ في جَدَّةَ سَنَةَ ١٩٧٦ م، وَأَسَّسَ كُلِّيَّةَ الهَنْدَسَةِ في جامِعَةِ اليَرْموكِ في الأُرْدُنِّ، وَعَمِلَ عَميدًا لَها، وَأَنْشَأَ بَرْنامَجاً في الميكانيكا في تونُسَ.

تَكَلَّلَ النَّجاحُ العِلْمِيُّ والمِهَنِيُّ لنايْفَة في العَديدِ مِنَ الجَوائِزِ، عَلى رَأْسِها جائِزَةُ (بنجامين فرانكلين) ٢٠١٤ م في الهَنْدَسَةِ الميكانيكِيَّةِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ حَصَلَ عَلَيْها العالِمُ الفيزيائِيُّ (ألبرت أينشتاين)، وَهِيَ تُعادِلُ جائِزَةَ نوبِلَ في العُلومِ.

نَشَرَ نايْفَةُ ٤٨٥ بَحْثاً أَصيلاً في مَجَلّاتٍ عِلْمِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ وَمُحَكَّمَةٍ، وَأَلَّفَ عَشَرَةَ كُتُبٍ عِلْمِيَّةٍ في الهَنْدَسَةِ، وَالرِّياضِيّاتِ التَّطْبيقِيَّةِ، وَالفيزْياءِ، تُدَرَّسُ في كَثيرٍ مِنَ الجامِعاتِ، وَشارَكَ في بُحوثٍ تَعاوُنِيَّةٍ في الهَنْدَسَةِ في تُرْكيا، وَالأُرْدُنِّ، وَمِصْرَ، وَأَشْرَفَ على سَبْعَةَ عَشَرَ مُؤْتَمَراً عِلْمِيّاً وَهَنْدَسِيّاً عالَمِيّاً، وَأَسَّسَ مَجَلَّتَيْنِ عِلْمِيَّتَيْنِ مُحَكَّمَتَيْنِ.

اسْتَمَرَّ علي نايْفَة في إِبْداعِهِ وَعَطائِهِ المُتَدَفِّقِ إِلى أَنْ أَسْلَمَ رُوحَهُ إِلى باريها، عَنْ ٨٤ عاماً.